قلعة كوسا باشا بأبي قير
(دراسة معمارية)

معاذ محمد كمال عبد الهادي علام

ملخص البحث:

تنسب هذه القلعة إلى القائد مصطفى كوسا باشا الذي أنشأها عام 1222هـ (1807م)، والذي كان له دور عظيم في التصدي للحملة الفرنسية عام (1799م) في موقعة أبي قير البرية، وهزم الفرنسيين في بداية المعركة، وبعد تحول النصر تجاه الفرنسيين، انتهت معركة أبي قير بهزيمة الجيش العثماني بقيادة مصطفى باشا، حيث أمر بونابرت بقتله.

يهدف البحث إلى التعريف بهذه القلعة ودراسة التخطيط المعماري والعناصر المعمارية لها باعتبارها إحدى القلاع المهمة من الناحيتين المعمارية والتاريخية، من خلال ثلاثة محاور: يتناول الأول الموقع وتاريخ الإنشاء، ويتناول الثاني الوصف المعماري والتخطيط العام للقلعة، ويتناول الثالث دراسة للعناصر المعمارية.

أما المناهج العلمية الذي اتبعها الباحث فتتمثل في المنهج الوصفي للقلعة من حيث التخطيط المعماري، والمنهج التحليلي من حيث دراسة العناصر المعمارية.

أولا: الموقع وتاريخ الإنشاء:

تقع قلعة كوسا باشا خلف شركة مياه الشرب شمال شرق أبي قير إلى الغرب من طابية البرج رقم (1) الواقعة على رأس شبه جزيرة أبي قير شرق الإسكندرية بمسافة (715 م)، وسميت بهذا الاسم نسبة للقائد العظيم مصطفى كوسا باشا الذي أنشأها عام 1222هـ (1807م)، وهذا ما ذكر في فرمان من محمد علي باشا [1]. وقد كان له دور عظيم في التصدي للحملة الفرنسية عام (1799م) عندما حاصر الحامية الفرنسية في قلعة أبي قير إلى أن استسلم قائدها الكابتن "فيناش"، ولما علم بونابرت بهذا الحدث أعد خطة سريعة لإنقاذ الموقف، وبالفعل بدأ في تعبئة وتحريك جيوشه، في الوقت الذي خرج العثمانيون بنصر مؤقت تحول إلى هزيمة، لعدم سرعة العثمانيين في وضع خطة حربية لمواجهة الجيش الفرنسي، بل كانت جنودهم ترسو جماعات متفرقة علي شاطئ

الإسكندرية.

ويمكن إلقاء الضوء على الدور العظيم الذي لعبه مصطفي كوسا باشا في حربه ونضاله ضد الفرنسيين عام (1799م) في موقعة أبي قير البرية، وبعد هزيمة الفرنسيين في بداية المعركة، أصر بونابرت على استعادة الإسكندرية واقتحام قلعة أبي قير والقضاء على العثمانيين وعلى مصطفى كوسا باشا، لم تكن القيادة التركية في هذا الوقت قد رسمت أية خطة حربية لمواجهة الجيش الفرنسي، بل كانت جنودهم لاتزال ترسو إلى البر جماعات مفككة لا يربطها نظام، ولم يقدروا قوة جيش بونابرت، وظلت الجيوش العثمانية تنزل إلى البر حتى بلغ عددهم (15000) مقاتل.

فيما لم يفكر مصطفي باشا في احتلال الإسكندرية أو رشيد ليتخذها قاعدة عسكرية للزحف منها إلى داخل البلاد، بل ظل جامدا في شبه جزيرة أبي قير، واكتفي بقطع المواصلات بين الإسكندرية ورشيد، وكانت تنقصه قوة الفرسان والمدفعية، وترك لبونابرت الفرصة لمهاجمته قبل أن يرسم لنفسه أي خطة حربية.

فلما علم بونابرت بجمود مصطفي باشا عزم على مهاجمة الجيش العثماني في شبه جزيرة أبي قير، واختار قرية بركة غطاس قاعدة ليبدأ فيها الهجوم لأنها نقطة ارتكاز يسهل الوصول منها إلى الإسكندرية ورشيد وأبي قير، وكانت خطته أن يهجم من هذه النقطة جاعلا غايته حصر الجيش العثماني في شبه الجزيرة، ومنع اتصاله بالإسكندرية ورشيد وداخلية البلاد، وعهد إلى الجنرال مارمون قومندان الإسكندرية بالاتصال بفرسان الجنرال مورا لاكتشاف موقع الأتراك من أبي قير، فقام الضابط بيكو (Picot) بهذه المهمة بسهولة تامة، لأن مصطفي باشا حشد جيشه في شبه الجزيرة حشدا دون أن يجعل له نقطا أمامية أو مخافر تمنع اكتشاف مواقعه.

وقد تفوق الفرنسيون بتدبير قيادتهم وحسن نظامهم وإحكام هجومهم وكثرة عددهم ولا سيما الفرسان، فتمكنوا من سحق خطي الدفاع الذين أقامهما الجيش العثماني، وفتكوا بالجنود الذين كانوا يرابطون عليهما، وبذلك بدأت هزيمة العثمانيين، فالتجأ مصطفي باشا إلى قرية أبي

قير ليستند إلى القلعة، ولكن الجنرال "مورا" هجم بفرسانه وحال بين القرية والقلعة، فحصر مصطفي باشا وجنوده في قرية أبي قير وهجمت فرقة الجنرال "لان" على القرية وأقبل "مورا" بفرسانه مقتحما معسكر مصطفى باشا فأخذه في خيمته أسيرا، وانتهت معركة أبي قير بهزيمة الجيش العثماني.

على أن القلعة ظلت تقاوم هجمات الفرنسيين، وامتنع بها نحو ثلاثة آلاف من الجنود العثمانية بقيادة عثمان خجا ابن مصطفى باشا الذي أبى أن يسلم كما فعل أبوه، واستمر الحصار قائما والحرب مستمرة إلى أن نفدت ذخائر العثمانيين فاحتل الفرنسيون القلعة[2] وسحقوا الجيش العثماني وأخذوا مصطفى كوسا باشا وابنه عثمان خجا وغيرهم أسرى، حيث أمر بونابرت بقتل مصطفي كوسا باشا[3] ونقلوا عثمان خجا إلى رشيد فدخلوا به المدينة وهو مكشوف الرأس وطافوا به يزفونه بطبولهم حتى وصلوا به إلى داره فقطعوا رأسه تحتها، ثم رفعوا رأسه وعلقوه من شباك داره ليراه من يمر بالسوق، وكانت هذه نهاية حاكم المدينة الذي تصدى للغزاة[4].

ثانيا: الوصف المعماري والتخطيط العام لقلعة كوسا باشا:

قلعة كوسا باشا يحيط بها سور حجري وهذا السور ارتفاعه (1,5م)، يلي هذا السور خندق عميق (لوحة رقم 1) كان يملأ بماء البحر، يمر فوق هذا الخندق معبران خشبيان أحدهما من عصر الإنشاء والآخر حديث، ويؤدي المعبر إلى الباب الرئيسي للقلعة، يقع الباب الرئيسي بالواجهة الرئيسية لقلعة كوسا باشا (لوحة رقم 2) وهي الواجهة الشرقية، وهى مكونة من طابقين بينهما إطار حجري، أرضية الطابق السفلي نفس مستوي أرضية الخندق، ويفتح في الطابق العلوي عدة نوافذ ومجموعة من المزاغل، ولا تسير الواجهة الرئيسية بخط مستقيم بل يبرز على جانبيها برجي القلعة وتغطي سقف الحواصل الموجودة بالواجهة وبرجي الواجهة سقف جمالوني (لوحة رقم 3) متأثرة بقلاع أوروبية.

ويوجد علي جانبي المدخل الرئيسي أبواب تؤدي إلي حواصل القلعة التى توجد بالواجهة الرئيسية (لوحة رقم 2)، وبعد المدخل يوجد خندق داخلي عليه معبر خشبي صغير، يؤدي إلى الفناء الداخلي للقلعة (لوحة رقم 2)، ويتوسط هذا الفناء حاصل طويل يسير في استقامة

(لوحة رقم 5)، يقسم القلعة نصفين وعلى جانبي هذه الحواصل توجد سراديب عملاقة تتكون من طابقين (لوحة رقم 1)، ويعلو هذه السراديب دروة فتحت فيها مزاغل لمدافع القلعة، حيث يوجد مدفعان أرمسترونج من عهد الخديوي إسماعيل، ويوجد زلاقتين بجوار السراديب ليصعد عليها مدافع القلعة، ويوجد أسفل هذه السراديب سرداب صغير يقطع الخندق ويتصل بالسراديب الكبيرة.

تخطيط القلعة (شكل رقم 1) سداسي الشكل[5]، أما التخطيط المخمس فيطلق على قلعة التوفيقية[6]، التي بناها الخديوي إسماعيل على طراز قلعة كوسا باشا لأن أضلاع قلعة التوفيقية مستقيمة ولا يوجد انكسار في أحد أضلاعها. وكثرة هذه الأضلاع تؤدى إلى قوة الدفاع ووضوح رؤية الموقع بأكمله، وقلعة كوسا باشا عند رؤيتها لأول مرة تلاحظ إنها تمثل رأس الحربة وهذا يعنى معنويا القضاء على الأعداء وقوة الدولة، وإذا دققنا أكثر من ذلك فترى شكلا آخر هو شكل السيف والدرع أو شكل السهم والنبال وهذا يعنى القوة العسكرية في تلك الفترة وذكاء المعمار في اختيار الموقع لبناء القلعة على ربوة مرتفعة على البحر ويدل على قوة اقتصاد هذه الدولة.

وهذه القلعة أحيطت بأسوار ليست مرتفعة (لوحة رقم 1-2-3) ويليها خندق عميق مائي يحيط بالقلعة يملأ بالماء عند حدوث أي عدوان[7] على القلعة، ويوجد معبر خشبي[8] على الخندق يوصل إلى المدخل الرئيسي ومنه إلى داخل القلعة وهذا المعبر متحرك، والدليل على هذا وجود برطومين خشبين بارزان أعلى المدخل الرئيسي بهما سلاسل ضخمة كانت تعمل على فتح الجسر عند حدوث العدوان وغلقه وجعل المعبر ممتد في أوقات السلم وهذا موجود في اللوحة التي تنشر لأول مرة، وهذا المعبر محمول على دعامتين من الأحجار الكلسية التي لا تتشبع بالماء (ضد الماء) وله درابزين خشبي.

ويلى هذا الخندق الواجهة الرئيسية للقلعة والتي نصل لها عن طريق مدخل رئيسي الذى يوجد بعد المعبر الخشبي المتحرك وهذا المدخل هو المدخل الأصلي للقلعة، وهناك مدخل أخر ومعبر أخر على يمين المدخل الأصلي والمعبر الأصلي ولكنه فتح حديثا وهذا المعبر الخشبي الذى

يصل لهذا المدخل أيضا صنع حديثا، ولكن إحدى الدراسات السابقة[9] ذكرت أن هناك ثلاثة معابر وثلاثة مداخل في الواجهة الرئيسية وهذا ليس صحيحا بل هما مدخلان ومعبران أحدهما من عصر الإنشاء والثاني حديث الإنشاء، وإذا كان هناك معبر ثالث وفتحة ثالثة في الواجهة كان على الأقل كان يوجد أثر لهما وخاصة فتحة المدخل الثالث.

وهناك مستويات مختلفة في قلعة كوسا باشا حيث نجد أن الواجهة الرئيسية تتكون من طابقين، بينهما إفريز حجري بارز، والطابق الأول أرضيته على نفس مستوى أرضية الخندق وهو سرداب كبير تحت حواصل الواجهة ونصل له عن طريق مدخل معقود ونصل لهذا المدخل عن طريق الخندق الداخلي للقلعة.

الطابق الثاني ونصل له عن طريق عدة مداخل أولها المعبر الخشبي الحديث الذى يقع على يمين المدخل الرئيسي الذى يوصلنا إلى المدخل الثاني الحديث الذى لا ينتمي إلى عصر الإنشاء، وهناك باب معقود داخل فناء القلعة نصل له عن طريق معبر خشبي ويوجد على يمين المدخل الداخلي لدركاة المدخل الرئيسي ، وهو من عصر الإنشاء، وهناك مدخل أخر على يسار المدخل الداخلي لدركاة المدخل الرئيسي، وهى عبارة عن فتحة معقودة فتحت في الطابق الأول (السرداب) ونصل عن طريقها إلى حواصل ومزاغل الطابق الثاني بواسطة سلالم حجرية، ولهذا الطابق سقف جمالوني.

ولقلعة كوسا باشا برجان يمثلان جناحي الواجهة الرئيسية البارزان عن سمت الجدران (شكل رقم 1)، ويدل على ذلك أنه توجد على جانبي المدخل حواصل الجنود وتفتح مداخلها من داخل دركاة المدخل وهناك أيضا مداخل قمنا بذكرها من قبل، وهذه الحواصل تسير بشكل مستقيم مع سمت المدخل (لوحه رقم 5)، بالإضافة إلى أنه كان من الممكن أن يجعل الواجهة مستقيمة وليس بها بروز وكما نعلم أن أى بروز عن الواجهة بمثابة برج للقلعة كما رأينا في الأبراج القديمة مثل قلعة صلاح الدين بالقاهرة وقلعة قايتباي بالإسكندرية، وإذا لاحظنا أن هذا العنصر المعماري أول عنصر يتقدم القلعة بعد الخندق وهذا دليل على إنه أول خط دفاع بعد الخندق فهذا يعطيه صفة البرج الدفاعية[10].

وهناك عنصر داخل القلعة يتكون من ثلاث طوابق وهما سردابان كبيران يسيران مع الخندق

المائي والأسوار الخارجية في محاذاة، الطابق الأول تحت سطح الأرض أي نفس مستوى الخندق، وهو سرداب كبير وطويل وله فتحة معقودة نصل لها عن طريق الخندق، وهو مبنى من الأحجار الجيرية، وهذه السراديب كانت مخصصة لحماية الجنود وكيفية خداع العدو وسرعة تحرك الجنود (لوحة رقم 4).

والطابق الثاني نفس تخطيط الطابق الأول وهو سرداب طويل يعلوه إفريز حجري بارز وكانت له فتحة معقودة في نفس مكان فتحة السرداب الأسفل ولكن هذه الفتحة تعلو فتحة الطابق الأول ولكنها سدت حديثا، ويمكن القول إنه يمكن الوصول لهذا الطابق عن طريق سلم متحرك.

الطابق الثالث يتكون من دروة أو ساتر يدور مع السراديب وكانت هناك عدة فتحات في هذه الدروة لإطلاق المدافع ويوجد على سطحه بطاريات المدافع وهذه الفتحات هي بمثابة مزاغل للمدافع، ويصعد له عن طريق زلاقتين مزدوجتين على جانبي الفناء (لوحة رقم 1).

أما المستوى الواحد فيتكون من طابق واحد أسفل سطح الأرض أى على مستوى أرضية الخندق، وهما السردابان الصغيران الموجودان على جانبي السراديب الكبيرة (لوحة رقم 1)، وهذان السردابان يقطعان الخندق في شمال القلعة وجنوبها ولهذا السردابان عدة مزاغل، وكان السرداب الموجود في الناحية الشمالية مفتوحا حتى يصل إلى البحر المتوسط لكى يملأ الخندق بالماء عن طريقه، ولكنه الأن مسدود ولكن هناك إحدى الدراسات[11] ترجح أن هذا السرداب كان مفتوح من أجل تسهيل انتقال الجنود ومعداتهم إلى الخارج القلعة في حالة الحرب، ولكن السبب الرئيسي والصحيح هو ما ذكرته وهو دخول الماء للخندق لإعاقة العدو للدخول إلى القلعة، وكان لهما سقف جمالوني (لوحة رقم 4).

ويوجد أيضا حواصل ممتدة بشكل مستقيم في وسط فناء القلعة (لوحة رقم 5)، وهي تتكون من طابق واحد فوق سطح الأرض وكانت مخصصة للجنود أو الذخيرة الخاصة بالقلعة وفتحت فيها عدة فتحات للأبواب والشبابيك وقليلا من فتحات المزاغل توجد في الواجهة المواجهة للمدخل، وهذه الحواصل كانت من الأحجار الجيرية، ولها سقف جمالوني.

أما بالنسبة لتسليح القلعة في عهد محمد على فكما ذكرنا في باد الأمر أن القلعة بها 47 مدفعا وثلاث مدافع هاون وأيضا واحد جبخانة، ولكن في عصر عباس زاد عدد المدافع حتى وصل عدد المدافع إلى 59 مدفعا وزاد في عهد الخديوي إسماعيل إلى أن زاد عدد المدافع حتى وصل إلى 63 مدفعا ويوجد مدفعان منهما موجودين حتى يومنا هذا.

ثالثا: العناصر المعمارية

الأسقف الجمالونية:

وجدت في العمارة الحربية في أوروبا وتأثرت بها القلاع الحربية في عصر محمد علي باشا، ووجد هذا العنصر في حصن بيرسكو بفرنسا الذي أنشئ في أواخر القرن الخامس الميلادي وبداية القرن السادس الميلادي، وهذا الحصن يأخذ شكل متعدد الأضلاع أو شكل النجمة[12]، وهذا العنصر موجود في قلعة كوسا باشا وغطي به برجي القلعة وكذلك حواصل القلعة الداخلية.

النوافذ أو الشبابيك:

تنوعت أشكال النوافذ وتنوعت استخداماتها فمنها المربع ومنها المستطيلة والمربعة كانت موجودة في برجي وحواصل قلعة كوسا باشا.

الأبواب:

المداخل المباشرة والمحصنة عن طريق برجين توأمين يكتنفان مدخلها ومن أمثلتها مدخل قلعة كوسا باشا الرئيسي حيث أنه يوجد على جانبي المدخل حواصل الجنود أو الحراسة ويدخل هذه الحواصل داخل برجي القلعة.وهذان النمط وجد في الحضارات والعمائر السابقة على العمارة الإسلامية سواء في العمارة الرومانية أو العمارة البيزنطية[13] .

الدعامات والأعمدة:

شوهد الدعامات والأعمدة في أطلال قصر الخليفة المعتصم في سامرا المعروف بالجوسق الخاقاني، أعمدة تيجانها ناقوسيه أو رومانية في مصر في مقياس الروضة وهى تكتنف الفتحات المعقودة بعقود مدببة والمستعملة كمآخذ للمياه من نهر النيل ثم استعملت هذه التيجان بعد ذلك كأعمدة متصلة ركنية في الدعائم التى تحمل عقود البائكات في أروقة الجامع الطولوني بمدينة القاهرة[14].

ظهرت الدعامات كعنصر معماري مهم وظهر هذا العنصر في الخنادق حيث ارتكزت على هذه الدعامات الجسر الخشبي (المعبر) المؤدى إلى القلعة كما هو موجود في قلعة كوسا باشا وهي مكونة من الطوب الحجري وكانت هذه الدعامات قوية جدا حتى تتحمل سير الجنود وعربات جر المدافع الضخمة وكذلك أرجل الخيول التى تجر هذه العربات وهذه المدافع .

الإفريز:

وقد جاء في بعض الدراسات الأثرية أن الإفريز هو السطر المكتوب أو المنقوش بنص وقفية أو نص تاريخي تحت الشرفات المتوجة لواجهات العمائر الأثرية، أو تحت سقوفها الداخلية مباشرة، أما الطراز فهو السطر الموجود بحروف كبيرة على الأثار ويعرف في حالة اشتماله على نص تاريخي على جانبي الباب باسم (تاريخ طراز) وفي حالة وجوده في منتصف الواجهة أو محيطا بالإيوان باسم طراز فقط، وقد ورد بها المعنى في حجة وقف مدرسة القاضي يحيى ذين الدين بالأزهر (848هـ /1444م) وحجة وقف جامع ميرزا ببولاق (1110هـ/1698م)[15].

ووجد هذا العنصر المعماري في واجهة قلعة كوسا باشا وحول المدخل الرئيسي وفي وسط برجي القلعة .

العقود النصف دائرية:

وتتميز قلعة كوسا باشا بأن مدخلها ذات عقود نصف دائرية لا يوجد فيها مسحة زخرفية ولا جمالية ووجدت في المدخل الداخلي للقلعة بعد ممر الدركاة، وتوجد في فتحات باب لسلالم المؤدية إلى الأبراج الخاصة بالقلعة التى تؤدى إلى طبيعة الحال لحواصل الجنود.

أما عن تأصيل هذا النوع من العقود فنجده يرجع إلى العصور القديمة، فاستخدم في العمائر قبل الإسلام، ومن الصعب تحديد أصل ابتكار هذا النوع من العقود حيث انتشر في جميع العصور التاريخية المتعاقبة على رقعة شاسعة تشمل الأقطار المختلفة التى نشأت فيها الحضارات القديمة[16].

الخندق المائي:

واستخدم الخندق خلال العصر الأموي في غرب العالم الإسلامي في مدينة تونس كان يحيط بها خندق حصين[17].

وفي العصر العباسي استخدم الخندق في العديد من المدن المحصنة، منها مدينة المصيصة حيث أعاد هارون الرشيد بناءها وحصنها بخندق في سنة 140هـ (757م- 758م)[18]. كان عنصرا فعالا في كل الأبراج والقلاع الحربية في القرن التاسع عشر. ومن الغريب أن نجد خندق خارجي وهناك خندق داخلي كما هو في قلعة كوسا باشا، الخنادق المائية تأثير من القلاع الفرنسية ووجد فى حصن لوفويز[19] وحصن بيرسكو حيث تحيط بهم المياه من جميع الجهات كخط دفاع.

الجسر المتحرك:

عرفت العمارة الإسلامية عامة الجسر بشتى أنواعه المختلفة، فهناك جسور تشيد على الأنهار والوديان للوصل بين حفتيه أو ضفتيه لتيسير الطرق العامة وجسور الموانئ لرسو السفن، وجسور أبواب المدن المحصنة والقلاع والأبراج المنفصلة بنوعيها الثابتة والمتحركة لوصلها وفصلها عن محيطها الخارجي، وهذا النوع الأخير يهمني في هذه الدراسة للعناصر المعمارية الدفاعية في القلاع.

وللجسور أنواع وهى من الحجر وأخرى من الخشب أو الحديد الجسور الدفاعية التى تتقدم أبواب القلاع وتدخل في تصميمها حيث يتم عزلها عن المحيط الخارجي بواسطة خندق عريض، وعميق يملأ بالماء في أغلب الأحوال عند العدوان عن القلعة بحيث يتعذر على الخيل والمشاة عبوره مهما بلغ من أقدامهم وقوتهم ويتم عبوره غالبا عن طريق جسر قسم منه ثابت والآخر متحرك ولقد ضاعت آثار الجسور المتحركة، فلم نعد نراها اليوم كما كانت تستخدم في ذلك الزمان، وتحولت إلى جسور ثابتة كليا كما رأينها في قلعة كوسا باشا، أو متهدمة[20] أو غير موجودة تماما كما شهدناها في أبراج السد نمرة(2،3،4).

ففي العصر الفاطمي نجده يتقدم البوابة الشرقية من سور الإسكندرية، وهو من النوع المتحرك يرفع عن طريق آلات الرفع، ذكره السيوطي في رواية منقولة ترجع إلى سنة 560هـ (1164–1165م)[21].

أما في العصر الأيوبي فنجده أستخدم في عهد صلاح الدين الجسر المتحرك الذى كان يتقدم الباب الجديد بسور صلاح الدين الشرقي الذى كان يلتف حول القاهرة والفسطاط،[22]. وجد هذا العنصر منتشرا في قلاع أبي قير الحربية في تلك الفترة ونري هذا العنصر في قلعة كوسا باشا (لوحة رقم 3)، فكانت للمعابر المتحركة تأثير كبير على العمارة الحربية في فترة حكم أسرة محمد علي.

الأسوار:

الأسوار وجدناها في قلعة كوسا باشا وأبراج ليست مرتفعة فكانت قليلة الارتفاع حتى إنها لا تتعدى 1,50 متر من سطح الأرض الخارجي للقلعة وعرض هذه الأسوار (1,20 متر) وكان يلي هذه الأسوار الخارجية خندق البرج أو القلعة (لوحة رقم 3).

السرداب:

تنوعت السراديب وكانت عنصرا معماريا قديما ولكنه تتطور في عصر محمد علي بشكل واضح في قلعة كوسا باشا حيث تنوعت أشكاله فهناك سرداب ضخم يحيط بفناء القلعة وهو مكون من دورين وذلك لتسهيل مرور الجنود، وهناك سرداب صغير ممتد من الناحية الشمالية للقلعة عمودي على السرداب الضخم وهناك سرداب آخر ممتد من الناحية الجنوبية للقلعة عمودي على السرداب الضخم وكان لهذان السردابان الصغيران بابان يطلان على واجهتهما الشمالية والجنوبية كما شرحنا في الدراسة الوصفية لقلعة كوسا باشا وهذان السردابان الصغيران فتح بهما عدة فتحات من مزاغل، وكانت هذه السراديب ذات أسقف جمالونية، ووجد هذا العنصر في حصن بيرسكو بفرنسا.

الزلاقات:

ووجد هذا العنصر عند باب زويلة بأسوار مدينة القاهرة من الناحية الجنوبية التى بنيت في أيام الأمير بدر الجمالي ظلت حتى العصر الأيوبي حيث تمت إزالتها في عهد الملك الكامل محمد بن العادل (635-615هـ/1218-1238م)، وقد ظلت بقيتها إلى عهد السلطان المملوكي الناصر فرج بن برقوق (815-801هـ/1399-1412م) في بداية عصر المماليك

الجراكسة[23].

فهي عنصرا هاما في العمارة الحربية في عصر محمد علي باشا وانتشر هذا العنصر في قلعة كوسا باشا وذلك لصعود المدافع الضخمة والذخائر بواسطة الخيول التى تجر عربات الجر التى يعلوها المدافع والذخائر ومستلزمات الجنود في مدخلها الرئيسي، وهذه الزلاقة كانت مصنوعة من الحجر الجيري وهذا العنصر يعتبر تأثير فرنسي حيث وجد في حصن لوفويز وحصن بيرسكو.

الحواصل:

تعددت أنواع الحواصل من حيث الوظيفة ومن حيث المكان ومن حيث المساحة، من حيث الوظيفة فهناك حواصل كانت لسكنى الجند وهناك حواصل كانت مخازن للأسلحة وهناك حواصل كانت بمثابة مطعم وهناك حواصل كانت للنوبتجية بين جنود الحراسة وهي كانت من الأحجار الجيرية هذه الحواصل توجد في وسط فناء قلعة كوسا باشا وعلى جانبي المدخل الرئيسي وهي كانت مخصصة للحراسة.

المزاغل:

تعد المزاغل العنصر الدفاعي الذي يسمح للمتمرسين بالسور الدفاع عن المدينة تجاه أى قوات غازية، لفظ المزاغل لم يرد له تعريف في اللغة العربية، لكنها ترد لفظ المراحى[24]، في حين إنه يعرف في اللغة اليمنية القديمة باسم صوبت[25] والتي ربما هى مشتقة من كلمة صوب السهم أو البندقية أى وجهه نحو الهدف واستعد لإطلاقه، في حين يعرف في العمارة الحربية في الأردن باسم الطلاقة وجمعها طلاقات[26].

والمزاغل من الناحية المعمارية عبارة عن فتحة لرمى السهام على هيئة شق مستطيل رأسي أو مربع، ضيق من الخارج ومتسع من الداخل لتسهيل حركة المدافعين، استخدمت منذ فترة مبكرة في العمارة الحربية الإسلامية وأقدم بقاياها توجد في الحير الغربي 110هـ (728م) وقصر الأخيضر 161هـ (778م) ومزاغل الطوابق العليا في سوسة 254هـ (829م)، كما استخدمت المزاغل في أسوار القاهرة الفاطمية 480-485هـ (1092-1087م)[27].

إن المزاغل من العناصر المهمة في العمارة الحربية في مختلف العصور وهي عبارة عن فتحات لرمى السهام أو ضرب البنادق أو ضرب المدافع أو إسقاط المواد الملتهبة أو المراقبة وكانت

تستخدم أيضا للإضاءة والتهوية وتنوعت أشكال فتحات المزاغل فمنها الضيق ومنا الأوسع ومنها ما هو في البناء نفسه مثل الأبراج والسراديب ومنها ما هو منفرد بذاته، وكل هذه الأنواع رأيناها في القلاع الحربية في عهد محمد على وأسرته.

فقد رأينا المزاغل الضيقة الموجودة في قلعة كوسا باشا فكانت مخصصة لضرب بالسهام والبنادق وكانت توجد في سراديب قلعة كوسا باشا وبرجيها، وهناك المزاغل المنفردة بذاتها وهى قوية مخصصة لضرب المدافع وكانت لها قاعدة حجرية داخلها قواعد حديدية وتربيعة من الأحجار البازلتية والجيرية القوية كما هو الحال في قلعة كوسا باشا وقد تأثرت بالحصون الفرنسية مثل حصن بيرسكو[28].

الدروة أو الساتر:

كانت الدروة عنصرا مهما لحماية الجنود من أى ضرب خارج القلعة أو الطابية وهو مكون من نفس مادة بناء القلعة أو الطابية وكانت هذه الدروة تكون أعلى البناء وكانت تدور بالقلعة أو الطابية لتعطيها علوا وشموخا وكانت بمثابة ستارة وساترا لجنود والآلات الحربية، وكانت معظم الدروات تتزين بكورنيش حجري بارز ووجدنا هذا العنصر فوق السراديب بقلعة كوسا باشا.

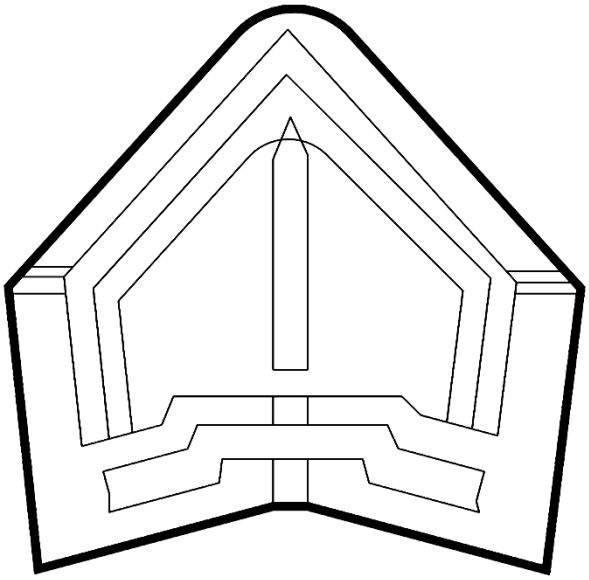

شكل رقم 1. تخطيط قلعة كوسا باشا، عمل الباحث.

لوحة (1) السراديب الكبيرة وخندق قلعة كوسا باشا، تصوير الباحث

لوحة (2) الحواصل الرئيسية بالواجهة الرئيسية والمعبر الخشبي لقلعة كوسا باشا ،

تصوير الباحث.

لوحة (3) برج القلعة وأسوارها الشمالية ، تصوير الباحث

لوحة (4) السرداب الصغير داخل الخندق، تصوير الباحث.

لوحة (5) الفناء الداخلي للقلعة وملحقاته، تصوير الباحث.

[11] القطري، سحر محمد (1997). المنشآت الدفاعية في مدينتي دمياط والإسكندرية في عهد أسرة محمد علي رسالة ماجستير، كلية الآداب، جامعة طنطا، ص262. وقد ذكرت إحدى الدراسات أن بناء القلعة كان عام 1822م، أى بعد إ

صدار الفرمان بخمسة عشر سنة، ويرجح الباحث أن تكون هذه القلعة قد بنيت في التاريخ الأول. جمعة، أمل محفوظ أحمد (2007). التحصينات الحربية بسواحل مصر الشمالية، في القرن 13هـ/19م، رسالة دكتوراه، كلية الآثار – جامعة القاهرة، ص 208.

[2] الرافعي، عبد الرحمن (2000). تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم في مصر، 2، الهيئة المصرية العامة للكتاب – القاهرة، ص ص67-70.

[3] درويش، محمود أحمد (1992). الاستحكامات الحربية بمدينة رشيد حتى عصر محمد علي، رسالة دكتوراه، كلية الآثار – جامعة القاهرة، ص311.

[4] الجبرتي، عبد الرحمن بن حسن بن برهان الدين الجبرتي الحنفي ت 1240هـ/1825م. عجائب الآثار في التراجم والأخبار – تاريخ الجبرتي، لجنة البيان العربي، 1، ص ص33-330. جولوا (1978). دراسة موجزة عن مدينة رشيد، وصف مصر، 3، ترجمة زهير الشايب، القاهرة ، ص230.

5 ذكرت إحدى الدراسات السابقة أن التخطيط العام للقلعة على شكل مخمس، ولكنها لا تذكر أن هناك شبه انكسار في الضلع الشمالي الشرقي (الواجهة الرئيسية للقلعة)، جمعة، أمل محفوظ أحمد، التحصينات الحربية بسواحل مصر الشمالية، ص208.

[6] Sharaf Eldin, Shahira & others. Abu Qir fortresses as vital assets for tourism motivation and community development Fortece Abu Kir jako podstawa rozwoju turystyki i lokalnej społeczności, p.p.48-56.

7 الظاهري، غرس الدين خليل بن شاهين 873هـ (1894م)، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك، باريس، مطبعة الجمهورية، ص 39.

[8] تذكر إحدى الدراسات السابقة أن هذا المعبر محمول على ثلاث دعامات، ولم تذكر وجود درابزين خشبي لهذا المعبر. جمعة، أمل محفوظ أحمد(2007). التحصينات الحربية بسواحل مصر الشمالية، ص210.

[9] جمعة، أمل محفوظ أحمد، التحصينات الحربية بسواحل مصر الشمالية، ص210

[2] هناك دراسات أخرى تنفي الرأي الأول، وتقول أنها حواصل للجنود وليست أبراج، القطري، سحر، المنشآت الدفاعية في مدينتي دمياط والإسكندرية، ص203.

[1] جمعة، أمل محفوظ أحمد ، التحصينات الحربية بسواحل مصر الشمالية، ص214.

[12] http://www.castlesandmanorhouse.com/types_10_star.htm

موقع المرسال

13 مالدونادو، باسيليو بابون (2008)، العمارة في الأندلس، تقديم محمد حمزة الحداد، ترجمة وتحقيق علي إبراهيم، زهراء الشرق – القاهرة، ط1، 1، ص12.

14 سامح، كمال الدين (2000). العمارة الإسلامية في مصر، جامعة القاهرة ، دار نهضة الشرق – القاهرة، ط1، ص ص170-172.

15 رزق، عاصم محمد (2000). معجم مصطلحات العمارة والفنون الإسلامية، مكتبة مدبولي – القاهرة، ص19.

16 شافعي، فريد (1994). العمارة العربية في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ج1، ط1، مج1، ص ص115-148-173-201.

17 الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي ت626هـ /1229م (1995). معجم البلدان، دار صادر، بيروت، 2، ط2، ص71.

18 البلاذري، أبي الحسن أحمد بن يحيي ابن جابر البغدادي ت279هـ/ 893م (1412هـ/1991م). فتوح البلدان، تحقيق رضوان محمد رضوان، دار الكتب العلمية، بيروت، ص171.

19 http://www.amusingplanet.com/2014/02/7-magnificent-forts-on-french-coast.html Types of castle and The History of Castle star forts.

20 الريحاوي، عبد القادر(2008). قلعة دمشق، وزارة الثقافة، منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ص246.

21 السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (13 ربيع الأول سنة 1367هـ/ 24 يناير عام 1948م). رسالة في فضل ثغر الإسكندرية، نسخة بخط محمد قناوي محمد، ص ص57-58.

22 زكي، عبد الرحمن (1386هـ/1966م). القاهرة تاريخها وأثارها (1825-969م) من جوهر القائد إلى الجبرتي المؤرخ، دار الطباعة الحديثة والدار المصرية للتأليف والترجمة، القاهرة، ص ص69-70.

23 الدمشقي، ابن ميسر تاج الدين محمد بن علي بن يوسف (1982). المنتقى من أخبار مصر، المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ص51.

24 الهروي، علي بن أبي بكر ت611هـ/1214م (1972). التذكرة الهروية في الحيل الحربية، تحقيق مطيع المرابط، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ص109.

25 الأغبري، فهمي (1994). التحصينات الدفاعية في اليمن القديم، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة بغداد، ص34.

26 المؤمني، سعد (1988). القلاع الإسلامية في الأردن، دار البشير، عمان، ص ص350-351.

27 عزب، خالد، أسوار وقلعة صلاح الدين، مكتبة زهرة الشرق – القاهرة، ص18.

28 http://www.castlesandmanorhouses.com/types_10_star.htm